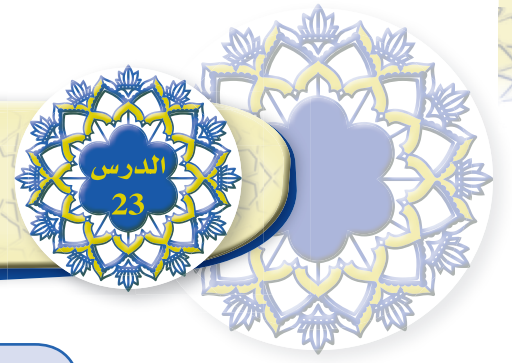


كتب الصوفيين ومصنفاتهم في التصوف



أهداف الدرس

1. أن أتعرف بعض المؤلفات في التصوف .
2. أن أتبين جهود علماء المغرب في التصوف .
3. أن أسلك سبيل العلماء الربانيين في خدمة الدين .

تمهيد

يسخر الله من صفوة عباده وخُلص أوليائه وأصفياه من يقوم بأمر دينه، تارة بالمال، وتارة بالنفس، وتارة بالعلم، وتارة بها جميعا، وقد تجلّى ذلك عيانا فيما بُذل من جهود في مختلف العصور في خدمة التصوف عناية وتديسا وتأليفا، لتقريب مسأله وبيان طريقته، واصطلاحاته. فما هي أبرز كتب التصوف؟ وما جهود المغاربة في التأليف فيه؟

نص الانطلاق

قال العلامة محمد الطالب ابن الحاج السلمي المرداسي الفاسي -رحمه الله-: «فلما كتبت العلوم ودونت، وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام وغير ذلك، كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم، فمنهم من تكلم في أحكام الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك، كما فعله أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (ت: 242هـ) في كتاب الرعاية، ومنهم من كتب في آداب الطريقة، وأذواق أهلها، ومواجدهم في الأحوال، كما فعله أبو القاسم (ت: 465هـ) في كتاب «الرسالة» والشهاب السهروردي في كتاب «عوارف المعارف»، ومنهم من جمع بين الأمرين كأبي طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي (ت: 336هـ) في كتابه «قوت القلوب إلى لقاء المحبوب» وهو مدونة التصوف ولذا أقبل عليه كل الصوفية، وأنشأوا عليه، وكان الشاذلي يقول: «عليكم بالقوت فإنه قوت» وكأبي حامد

الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» فدون فيه أحكام الورع والاعتداء، ثم بين آداب القوم، وشرح الاصطلاحات التي في عبارتهم، وكان الشاذلي يقول: إن كتاب «الإحياء» يورث العلم «وكتاب «القوت» يورث النور...» [الأزهار الطيبة النشر، لابن حمدون، ص 151].

الفهم

الشرح:

- **الكلام:** «علم الكلام» علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية، وإبراز الحجج، ودفع الشبه.

- **استخلاص المضامين:** أستخلص من النص أصل طريقة التصوف وأسباب اختصاص «الصوفية» بهذا الاسم.

التحليل

أولاً: كتب الصوفيين ومجالات تصنيفهم

كتب الصوفيين تختلف باختلاف أصحابها ومدارسها ومراحلها، وهو اختلاف تنوع وتكامل، شمل تصنيفها فروعاً ومجالات متعددة «منهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس؛ كالحارث المحاسبي (ت 243هـ) ومنهم من كتب في آداب الطريقة وأذواق أهلها ومواجدهم؛ كما فعل القشيري (ت 465هـ) والسهروردي (ت 587هـ) وأمثالهم، وجمع الغزالي بين الأمرين في كتاب الإحياء، فدون فيه أحكام الورع والاعتداء، ثم بين آداب القوم وسننهم، وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم «والكتب المؤلفة في التصوف كثيرة، أجلها قدراً...» «منهاج العابدين إلى رب العالمين» لأبي حامد الغزالي، وهو آخر مؤلفاته وأنفعها...، و«منازل السائرين» لشيخ الإسلام الهروي، والتعرف لأبي نصر الكلاباذي، و«تأييد الحقيقة العلية في تشييد الطريقة الشاذلية» للحافظ جلال الدين السيوطي، و«منارات السائرين ومقامات الطائرين» للشيخ نجم الدين داية، و«مفيد العلوم» لأبي بكر الخوارزمي، و«الحكم» لتاج الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله...، وليس في التصوف أجمع لبابه من هذا الكتاب، قاله زروق» [الأزهار الطيبة النشر، ص 155].

قال العلامة ابن خلدون - مبيناً ما حصل في التصوف من تطور - «... منهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك، كما فعله القشيري في كتاب «الرسالة»

والسهروردي في كتاب «عوارف المعارف» وأمثالهم. وجمع الغزالي رحمه الله بين الأمرين في كتاب «الإحياء» فدون فيه أحكام الورع والافتداء، ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم، وصار علم التصوف في الملة علما مدونا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط، وكانت أحكامها إنما تُتلقى من صدور الرجال كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك» [مقدمة ابن خلدون، ص 611].

وكتبهم تختلف باختلاف مدارسهم ومقاصد تأليفهم.

ومنهم من كتب في علوم الإشارة كتباً ورسائل، كما فعل أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي، وأبو الحسين أحمد بن محمد النوري، وأبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز، ويقال له لسان التصوف، وأبو محمد رويم بن محمد، وأبو العباس أحمد بن عطاء البغدادي.

ومنهم من كتب في المعاملات: الحارث بن أسد المحاسبي، ويحيى بن معاذ الرازي، وأبو بكر محمد بن عمر بن الفضل الوراق الترمذي، وأبو عثمان سعيد بن إسماعيل الرازي، وأبو عبد الله محمد بن علي الترمذي، وأبو القاسم ابن إسحاق بن محمد الحكيم السمرقندي. [التعرف لمذهب أهل التصوف، للكلاباذي، ص 33].

ومن أقدم ما وصل من المشرق إلى المغرب من الكتب المعتمدة عند القوم:

- كتاب «الرعاية لحقوق الله» لأبي عبد الله الحارث المحاسبي (ت: 243هـ)

- وكتاب «اللمع في التصوف» لأبي نصر الطوسي (ت 378هـ) وهو من أقدم كتب التصوف التي تتناول بعض مصطلحات الصوفية.

- كتاب «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي (ت 505هـ) وهو من أهم كتب التصوف، وعليه المعول عند القوم.

- كتاب «الرسالة القشيرية» لعبد الكريم القشيري، وهو كتاب يتناول سيرة السالكين، وبعض أقوالهم، ومبادئ السلوك ومناهجه، وهو من أهم ما كتب في السلوك.

- ابن عطاء الله، لا سيما في كتابه (التنوير في إسقاط التدبير) فإن فيه ما في كتب الصوفية المطولة والمختصرة، مع زيادة البيان واختصار الألفاظ، والمسلك الذي سلك فيه مسلك توحيد لا يمكن لأحد إنكاره ولا الطعن فيه، ولا يدعى للمتصف به صفة حميدة إلا أكسبه إياها، ولا صفة ذميمة إلا أزالها عنه وطهره منها» [عدة المرید الصادق، ص 179].

ثانياً: تفاوت مراتب كتب التصوف

قال الشيخ أحمد زروق «اتساع الكلام وتشعبه في الأصل والفرع ، مفيد لمن له أصل يرجع إليه به ، وإن كان مشوشاً لغيره ، فنظر المتسعات كـ «القوت» (كتاب: قوت القلوب لأبي طالب المكي) ، و «الإحياء» (كتاب: إحياء علوم الدين ، للغزالي) ونحوهما نافع لمن له طريق يقتفيها بعلم أو عمل أو حال ، فيما هو به ، سيما وهما مليان بتعريف النفوس ومشاكل إشكالها ، وما هي عليه من تدقيق النظر في نوازل المعاملات ، والإشارة لوجوه المواصلات ، وتحقيق ما وقع ، وبيان النافع والأنفع ، فهما وإن لم يكن فيهما للمريد ولا للعالم طريق ، مفيدان التحقّق والتحقيق .

والأول في «القوت» أكثر منه في «الإحياء» ، والثاني في «الإحياء» أكثر منه في «القوت» فلذلك قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: «كتاب «قوت القلوب» يورثك النور ، وكتاب «إحياء علوم الدين» يورثك العلم ، وما جرى مجراهما فهو على حكمهما ، والله أعلم» .
[قواعد التصوف ، ص 133].

ورحم الله الإمام الغزالي إذ بين بعض مصادره في طريقته التي سلك فقال «ابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبي ، والمتفرقات المأثورة عن ، الجنيد ، والشبلي ، وأبي يزيد البسطامي ، قدس الله أرواحهم ، وغيرهم من المشايخ ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع . . . » . [المنقذ من الضلال ، ص 171].

ثالثاً: من أعلام المغرب الأقصى الذين ألفوا في التصوف

مؤلفات علماء المغرب الأقصى في التصوف كثيرة ، سواء ما يتعلق بالتراجم أو مؤلفات الأخلاق والسلوك ، ومن الأعلام على سبيل المثال:

- ابن عباد الرندي (ت: 792هـ) الشيخ الإمام العارف المحقق الرباني أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النفزي المعروف بابن عباد شارح الحكم العطائية وأحد تلامذة الشيخ ابن عاشر الذي أخذ في طريق الصوفية والمباحثة عن الأسرار الإلهية المتكلم في علوم الأحوال والمقامات والعلل والآفات ، له تأليف عجيبة ، وتصانيف بديعة غريبة ، وله أجوبة كبيرة في مسائل العلوم نحو مجلدين ، ودرس كتباً وحفظها كلها أو جلها» [الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، للناصري ، 84/4]

ومن مؤلفاته: «الرسائل الكبرى والصغرى في التوحيد والتصوف والسلوك وغير ذلك» و«غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية» و«شرح أسماء الله الحسنى»، و«فتح التحفة».

- الشيخ زروق (ت 899هـ) العالم الفقيه المحدث الصوفي، وقد برع في التأليف في التصوف وأبدع فيه. ومن مؤلفاته: «شرح الحكم العطائية»، و«قواعد التصوف» و«عدة المريد الصادق». ومن صنف التأليف في التصوف الترجمة لمن سلك طريقة التصوف وتدوين سيرهم وأخبارهم، ومن مؤلفات المغاربة في هذا:

- كتاب: «المستفاد في مناقب العباد بفاس وما يليها من البلاد»، لأبي عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي (ت: 603هـ) وهو في التعريف بصلحاء فاس.

- كتاب: «التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي»، لابن الزييات (ت: 627 هـ) وهو في التعريف بصلحاء مراكش وأغمات، وهو من أهم المصادر المغربية التي تعرف بالصلحاء والأولياء في المغرب.

- كتاب: «المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف»، لعبد الحق البادسي (ت: 722هـ) وقد أرّخ فيه لرجال التصوف بالريف من الفترة الممتدة ما بين منتصف القرن السادس الهجري إلى أوائل الثامن الهجري.

- كتاب: «دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر»، لابن عسكر الشفشاوني (ت: 986هـ).

- كتاب: «نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني»، لمحمد بن الطيب القادري.

ومن تأليفهم في التصوف كتب الأسانيد، مثل: «تحفة أهل الصديقية بأسانيد الطريقة الجزولية الشاذلية»، لمحمد المهدي بن أحمد الفاسي، و«الترجمان المغرب عن أشهر فروع الشاذلية بالمغرب»، لعبد الحفيظ الفاسي و«ممتع الأسماع في الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع»، لمحمد المهدي الفاسي، و«المعزى في مناقب أبي يعزى»، لأحمد التادلي الصومعي، و«أخبار أبي العباس السبتي»، لابن الزييات التادلي، و«المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح»، لأبي العباس الماجري، و«مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن» لمحمد العربي الفاسي، وغيرها.

رابعاً: مصطلحات كتاب التصوف

الناظر في مؤلفات كتب التصوف يجد فيها مصطلحات خاصة بالقوم، قال الإمام القشيري: «اعلم أن من المعلوم: أن كل طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها - فيما بينهم - انفردوا بها عن سواهم، تواطؤوا عليها؛ لأغراض لهم فيها: من تقريب الفهم على المخاطبين بها، أو تسهيل على أهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيهم بإطلاقها. وهذه الطائفة يستعملون ألفاظاً فيما بينهم، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والإجمال والستر على من باينهم في طريقهم؛ لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف، أو مجلوبة بضرب تصرف، بل هي معان أودعها الله تعالى قلوب قوم، واستخلص لحقائقها أسرار قوم». [الرسالة القشيرية، 1/121].

خامساً: منهج قراءة كتب التصوف

للتصوفية كتب يعتمدونها، ويرشدون الراغب في سلوك طريقهم إليها، وهي تختلف حسب اختلاف قصد التأليف، ومن ذلك ما أرشد إليه الشيخ زروق - رحمه الله - بقوله «اتساع الكلام وتشعبه في الأصل والفرع، مفيد لمن له أصل يرجع إليه به وإن كان مشوشاً لغيره، فنظر المتسعات كالقوت (كتاب قوت القلوب) والإحياء (كتاب إحياء علوم الدين) ونحوهما، نافع لمن له طريق يقتفيها بعلم أو عمل أو حال، فيما هو به سيما وهما مليان بتعريف النفوس ومشاكل إشكالاتها، وما هي عليه من تدقيق النظر في نوازل المعاملات والإشارة لوجوه المواصلات، وتحقيق ما وقع، وبيان النافع والأنفع...» [قواعد التصوف، ص 59]. والراغب في قراءة كتب القوم ينبغي أن يعرف ما يبدأ به، قال الشيخ أحمد زروق رحمه الله «وأقل ما يجزئ فيه «بداية الهداية» للغزالي، وأوسطه «منهاجه» أو بعض كتب المحاسبي، وأعلاه كتب ابن عطاء الله ومن نحا نحوه» [عدة المريد الصادق، ص 182]. قال الشيخ زروق - رحمه الله - «اتساع الكلام وتشعبه في الأصل والفرع، مفيد لمن له أصل يرجع إليه به وإن كان مشوشاً لغيره، فنظر المتسعات كالقوت (كتاب قوت القلوب لأبي طالب مكي)، والإحياء (كتاب إحياء علوم الدين) ونحوهما، نافع لمن له طريق يقتفيها بعلم أو عمل أو حال، فيما هو به سيما وهما مليان بتعريف النفوس ومشاكل إشكالاتها، وما هي عليه من تدقيق النظر في نوازل المعاملات والإشارة لوجوه المواصلات، وتحقيق ما وقع، وبيان النافع والأنفع، فهما وإن لم يكن فيهما للمريد ولا للعالم طريق التحقق والتحقيق، والأول في القوت

أكثر منه في الإحياء، والثاني في الإحياء أكثر منه في القوت. فذلك قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: «كتاب قوت القلوب، يورثك النور، وكتاب إحياء علوم الدين يورثك العلم». وما جرا مجراهما فهو على حكمهما، والله سبحانه أعلم» [قواعد التصوف، ص 131].

سادسا: تكامل جهود التأليف في التصوف

الناظر فيما ألف من كتب في التصوف قد يخيّل إليه تباين مواضيعها وعند جمعها يظهر تكاملها، وفي تصانيفهم روعيت المسائل كما روعيت الفئات التي يكتبون لها، فكتبوا لكل فئة ما يناسبها، قال الشيخ زروق رحمه الله: «لكل فريق طريق: فللعامي تصوف حوته كتب «المحاسبي» ومن نحا نحوه، وللfaqه تصوف رجاه «ابن الحاج» في مدخله، وللمحدث تصوف حام حوله «ابن العربي» في سراج، وللعاابد تصوف دار عليه «الغزالي» في منهاجه، وللمتريض تصوف نبه عليه «القشيري» في رسالته، وللناسك تصوف حواه «القوت» و«الإحياء» وللحكيم تصوف أدخله «الحاتمي» في كتبه، وللمنطقي تصوف نحا إليه «ابن سبعين» في تأليفه، وللطبايعي تصوف جاء به «البوني» في أسرار. وللأصولي تصوف قام «الشاذلي» بتحقيقه، فليعتبر كل بأصله من محله، وبالله التوفيق» [قواعد التصوف، ص 109].

سابعا: هل يغني كتاب التصوف عن الشيخ؟

من القضايا التي يناقشها الصوفية مسألة الاكتفاء بالكتب في سلوك الطريق وعدمه، واختلفت آراؤهم في ذلك، وذهب الإمام زروق إلى اختلاف ذلك «باعتبار الأشخاص والأحوال، فشخص التعليم تكفي عنه الكتب لمن له ذكاء وعقل، وشخص التربية يكون واجبا في حق الغبي متأكدا في حق غيره، لأنه إن وصل بلا شيخ لم تفارقه رعونته وإن بلغ ما بلغ» [عدة المريد الصادق، ص 184].

وقد يكون لبعضهم ذلك بلا شيخ، ولكن الشيخ فاتح، وقد يختلف باختلاف المجاهدات، فمجاهدة التقوى لا يحتاج فيها إلى شيخ، ووجوده أحسن، ومجاهدة الاستقامة تحتاج إليه، وخبيا النفوس وتحف الحق غير معلومة ولا معروفة، ولا بد فيها من عالم يرجع إليه في معالمها.

التقويم

1. أذكر أهم المصنفات في التصوف.
2. أبرز جهود المغاربة في التصوف.
3. أبين ما تتميز به مؤلفات الصوفية.

الاستثمار

قال العلامة ابن الزيات -رحمه الله- مبينا قصده من تأليف كتابه «التشوف إلى رجال التصوف»: «ولما خفي عن كثير علم من كان بحضرة مراکش من الصالحين ومن قدمها من أكابر الفضلاء، رأيت أن أفرغ لذلك وقتا أجمع فيه طائفة أدون أخبارهم وأضيف إلى ذلك من كان من أعمالها وما اتصل بها من أهل هذه العدو الدنيا. وربما ذكرت من قدم مراکش وما اتصل بها وإن كان من غيرها، إذا كان مماته بها. وذكرت من هو من أهل هذه العدو وإن كان مماته بغيرها. وتحريت في نقل ذلك عن أهل الثقة والأمانة والخير والصلاح والمستورين ما استطعت...، وإن كان مشتملا على أضراب من أفاضل العلماء والفقهاء والزهاد والورعين وغير ذلك من ضروب أهل الفضل؛ فإن اسم الصوفي يصدق على جميعهم بوضع هذا الاسم عند المحققين...» [التشوف إلى رجال التصوف، ص 9].

أتأمل النص، وأناقش مع زملائي مسؤولية العالم في التعريف بالعلماء والصلحاء.

الإعداد القبلي

أقرأ نص الأنشطة والتطبيقات وأطالع كتاب «المنقذ من الضلال» للإمام الغزالي.